ليلة ١٤ شباط أو عيد الحب

• تغريد الغضبان*

كرسيّ بثلاث أرجل، والرِّجلُ الرابعة استُعيض عنها بكومة من البلاط جَلَسَ عليها «كاتبُ العدل» وأَعْطى الكرسيُّ السليمَ لزبونه أبي الحسن.

سَحَبَ كاتبُ العدل قلماً عن الطاولة وحرّكه أمام أنف أبي الحسن بنفاد صبر: «أخي.. آخر كلام عندي مائة وخمسون ليرة، وأنت تُملي عليَّ ما تريد دون أيّة إضافات من عندي. اتفقنا؟»

ـ اتفقنا.. أُكتبْ وخلِّصني.

«السيد المدير العام لمستشفى الإخاء. داعيكم أبو الحسن، من مواليد ١٩٤٥، العامل في مصلحة المصاعد التابعة لمستشفاكم الكريم. سيدي المدير: حرصاً منِّي على المصلحة العامّة والأخلاق العامّة وددتُ أن أحيطكم علماً بما حدث ليلة ١٤ شباط ١٩٩٦ في المصعد الذي كنتُ موكلاً بخدمته ذلك اليوم.

سيدي المدير:

أعتذر لأنَّ تقريري هذا سيصلكم متأخِّراً. فقد ترددتُ طويلاً قبل أن أحزم أمري بعد معرفتي أنَّ سيادتكم تلقيتم تقريراً من ملعونة الوا...»

ـ يا أخي، عفواً، اتَّفقنا ألاَّ أتدخَّل. ولكنْ أنا كاتب منذ نبتتْ شواربي، مرَّ على رأسي أشكال وألوان. وأنا أدرى منك بالقانون وثغراته. ليس في مصلحتك أبداً التهجُّم والشتم في تقرير رسميّ!

ـ طيِّب. فهمت. اكتبْ: «وبعد أن علمتُ مؤخّراً أنّ سيادتكم تلقَّى تقريراً من الممرّضة إنعام سليمان ادَّعتْ فيه أنَّني أتدخَّل في شؤونٍ لا تعنيني، وأنَّني أُخلُّ بقواعد الآداب والسلوك في الأماكن العامّة والرسميّة، وأنَّني أتحرّش بها دائماً، فقد رأيتُ أنَّ من واجبي تصحيح وجهة نظركم...»

ـ يا سيد أبي حسن.. لا يجوز مخاطبة رئيسك في العمل بهذه اللَّهجة: «تصحيح وجهة نظركم!» كأنَّكم تلعبون الشيش بيش معاً، واللَّه!

ـ طيبْ اكتبْ: «آه.. رأيت أنَّ من واجبي تصحيح المعلومات التي نقلتْها إلى حضرتكم الممرضةُ المذكورة آملاً في عطفكم وتجاوبكم.

الحقيقة يا سيدي المدير أنَّ ما حدث في ليلة ١٤ شباط كان نتيجةً لنفاد صبري مع تلك المخلوقة. فقد سبق وحذَّرتُها ونصحتُها، ولكنْ كأنَّ لها أذناً من طين وأذناً من عجين. تصوَّرْ يا سيدي، جعلتْني فرجةً، ولم تراعِ شيبتي لمجرّد أنَّني همستُ لها مرَّةً بعدّة كلمات في أذنها أحذِّرها من الوقوع في حبال ذلك النوع من الشبّان. تصوَّرْ يا سيدي المدير، اتَّهمتْني بمغازلتها، وبأنَّني كنتُ أَنهيها عن علاقتها بذلك الشاب لأحصل عليها لنفسي! تصوَّرْ.. أبو الحسن العجوز! سنِّي لا تسمح، وعندي زوجتان والحمد للَّه، ومريض بالسُّكري أيضاً، أَبْعد اللَّهُ عنكم وعن عائلتكم الكريمة شرَّ المرض.

يا سيدي، أنا أخدم في مستشفاكم الكريم منذ عشرين سنة. مرّ على هذا الرأس أشكال وألوان... من نظرة واحدة إلى عَيْنَي المرأة أَعْرف حقيقتها. وبصراحة لم تعجبني تلك البنت منذ أوَّل مرَّة جاءت فيها مع أخيها للتسجيل في مدرسة التمريض. تصوَّرْ يا سيدي تعرَّفْتُ على أخيها، وضيَّفته سيفْن آب، ومع ذلك ظلّت تمرّ من جانبي دون أن تلمحني وكأنَّني قشرة بصلة. لم تَدْعُني مرةً واحدةً لشرب كأس متّة مثل...»

ـ يا سيد أبي حسن.. يا أخي.. يا أخي.. ليس لصالحك ذكر «المتّة» الزفت. بالعكس المدير سيحترمها أكثر منك لأنَّها ستَظْهر مهتمةً بشغلها وأنتَ لا. أصلاً شرب المتّة ممنوع في الدوائر الحكوميّة!

---

* ـ كاتبة شابة من سوريا، تعيش في الولايات المتحدة.

ـ صحيح، صحيح، اشطُبْ اشطُبْ. اكتبْ: «وأنا رجل أتمتّع بروح الفكاهة. فكنتُ كلّما مرّت بجانبي أرميها بكلمة أو كلمتين من باب المزاح طبعاً، وكانت تردّ على مزاحي بنظرات استهزاء وتعالٍ وكأنّني ابن سبعة وهي ابنة تسعة. أتعجّب، يا رجل، كيف يَنْسى [هنا يتوقّف كاتبُ العدل عن الكتابة مبحلقاً بغيظٍ في شفتيْ أبي الحسن] الإنسانُ بسرعةٍ أصلَه وفصلَه بمجرّد حصوله على وظيفة معتبرة أكثر منك...»

ـ أبو الحسن، أريد أن أسألك سؤالاً قبل أن تُكْمل.

ـ تفضّل!

ـ هل المدير صديقك؟ يعني، هل صحّ لك مرّة أن تتحدّث إليه وجهاً لوجه؟

ـ يا حسرة، جرّاح مشهور مثله ومدير عام لمستشفى طويل وعريض سيتنازل لمستوى أبي الحسن؟ هل تمزح يا رجل!؟

ـ طيّب، كيف تَسْمح لنفسك بمخاطبته بهذه الطريقة: «يا رجل!؟» يا رجل ويا بطيخ؟

ـ واللّه صحيح، أُشطب الكلامَ الأخير، رحم اللّه والديك. اكتبْ: «لا بدّ أنّ حضرتكم تعرّفتم إلى شكلها وتوافقونني على أنّها لا تحرّك شعرةً في رأس صبيّ، فكيف ستحرّك شعرَ رأس رجل عجوز مثلي؟ ولكنْ، كما يقول المثل، إذا رأى الجمل حدبتَه وقع وانكسرتْ رقبته. المهمّ يا سيدي، كان كلّ همّي أن تصون سمعتَها وألا تختلط بمن هبّ ودبّ من الأوادم. وكنتُ أظنُّ أنّني أؤدّي واجبي بنُصْحها وهدايتها أمام ضميري وأمام اللّه سبحانه وتعالى. ولم أتخيّل أنّ النتيجة ستكون مقلوبة، وأنّها ستسبقني برفع تقرير إلى سيادتكم عن سلوكي..»

ـ كلمة «تسبقني» لا تعجبني هنا يا أبا الحسن، لأنّها ستشكّك المديرَ في أمرك. إستبدلْها بعبارة «ستَرْفع تقريراً» والسلام..

ـ «وأنّها سترفع تقريراً إلى سيادتكم تدّعي فيها زيْفاً وبهتاناً أنّي كنتُ ألاحقها لمقاصد غير شريفة. ولكنْ، يا سيدي، ألن يندفع الدمُ إلى جمجمتك إذا رأيت واحدةً من بنات الحلال اللواتي أوصانا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحفظهنّ وإبعادهنّ عن طريق الخطيئة بالكلمة، وإنْ لم يرتدعن فبالضرب، وإنْ لم يرتدعن فبإقامة الحدّ عليهنّ، وإنْ لم يرتدعن فبالرجم.. ـ أين كنّا ـ نعم.. تجالس شاباً وحدَه اللّهُ عليمٌ بحسبه ونسبه ودينه. كلّ يوم، مثل الدواء، صباحَ مساء، في الصعود والهبوط، قبل الدوام وبعد الدوام، يأتي ذلك السافلُ يرنّ جرس غرفتها وينتظرها. أخيراً لم أعدْ أطيق الصبر. رأيتُ أنّ من واجبي إعلام إخوتها في الضيعة، فتكبّدتُ عناء السفر وأجرة الطريق، وأَطْلعتهم على الحال، وكلُّ ظنّي أنّ النخوة والشهامة ستجعلانهم يهبّون مثل الريح ويقتلعونها من شعرها من دمشق ويجرجرونها أمامهم مثل الكلبة إلى...»

ـ يا سيد أبو الحسن، اللّه يحرسك، لا يجوز استخدام هذه التعابير النابية في تقريرٍ.

ـ رسمي.. فهمنا يا رجل، يقف شعرُ بدني كلّما تذكرتُ تلك المخلوقة.. أكتبْ: «ولكنْ ماذا تقول في هذا الجيل الذي انعدمتْ عنده الكرامة والنخوة وعزّة النفس؟ لم يُشْفِ غليلي واحدٌ من إخوتها الثلاثة، وأمام تنبلة إخوتها ونذالتهم...»

ـ ماذا قلنا؟ أمام تقاعس إخوتها.

ـ «وأمام تقاعس إخوتها قلتُ لنفسي، يا سيدي المدير، انتهينا يا ولد، لا تَحْشرْ نفسَك في ما لا يعنيك كي لا تسمع وترى ما لا يرضيك. إذا الإخوة لم يهتمّوا فلماذا تهتمّ أنت؟ هكذا قلتُ لنفسي. ولكنْ، يا سيدي، كأنّ جمرة كانت تكوي أحشائي كلّما رأيتُهما معاً. كانت أطرافي ترتجف، ويقشعرّ شعر بدني، وتحمرّ عيناي. ومرةً لكزني أحد الزوّار بمرفقه بكلّ وقاحة، وتولّى بنفسه الكبسَ على أزرار الطوابق لأنّني كنتُ غافلاً؛ لم أستطع رفع عيني عنهما. استهتار تلك المخلوقة كان يجنّني. كانت معه، يشربان المتّة على دَرَجِ الطابق الخامس..»

ـ أحسنتَ ـ زعق كاتبُ العدل وضرب بقبضته على الطاولة ـ أصبتَها في الصميم.. شربُ متّة، وتسامُرٌ على الأدراج في وضح النهار أمام الداخلين والخارجين..

ـ «نعم وأكثر من ذلك كانوا يقصدون إزعاجي بتبادل النظرات والمواعيد علناً أمام باب المصعد، أمام خلقتي مباشرةً. تقول هي: 'بكرا الساعة السابعة مساءً'، ويردّ الملعون: 'على درج الطابق الخامس'...»

ـ أبو حسن.. اسمعْ. ما رأيك لو غيَّرتَ الوقتَ إلى الواحدة ليلاً؟ إنَّه تغيير بسيط في وقائع الجريمة، لكنَّه لصالح قضيّتك..

ـ غيِّرْ، غيِّرْ. «إي واللّه يردّ الملعون: 'في الساعة الواحدة ليلاً سأكون بانتظارك على دَرَجِ الطابق الخامس'..»

ـ أبو حسن.. دعنا نكتبْ: 'تحت الدرج' لأن..

ـ آخ. لو أستطيع أن أَطُولها لقطعتُ لحمها بأسناني.. نعم، اشطبْ «على» واكتبْ «تحت الدرج.»

«ولولا قدرة الرحمن لما احتمل مريضٌ بالسكريّ مثلي الإحساسَ بتلك المغازلات والإثارات الحيوانيّة...»

ـ أبو حسن، دعنا نكتبْ: «لَمَا احتمل مريضٌ مثلي رؤيةَ تلك المغازلات.» فهناك فرقٌ بين أن ترى ولا تحتمل، وبين أن تحسّ ولا تحتمل.

ـ يَشْهد اللّهُ أنّني عرفتُ من أختار. أكتبْ: «وبما أنَّ حضرتكم رجل مثلي يفهم ويقدّر مشاعر الرجل، فسأعترف لك بأنَّ مشكلتي مع تلك المخلوقة تعدّت حدود المستشفى والعمل ولاحقتني إلى بيتي. فصرتُ كلَّما وضعتُ رأسي على المخدّة لأنام أتصوَّرها واقفةً أمامي. لم أجرِّب الكره في حياتي مثلما جرَّبتُه معها. هل تصدِّق سيادتكم أنّني دخلتُ مرّة إلى الحمام وإذ بي أراها واقفةً أمامي، شعرُها مبعثر، وصدرُها بارز، وصارت تقترب منّي بهدوء وأنا أتراجع أمامها إلى الخلف، حتى اصطدم رأسي بباب الحمّام، فزاغ بصري ووقعتُ على الأرض، وحين فتحتُ عيني كانت قد تبخرتْ؟ لم أصدِّق أنَّ أبا حسن يخاف إلاَّ بعد أن مرَّرتُ يدي على رأسي وشعرتُ بلزوجة الدم وسخونته. سيدي.. منذ يومَيْن فقط كنتُ في المحكمة على بعد خطوتين مما أقف الآن. طلَّقتُ إحدى زوجتيّ، وحَكَمَ القاضي عليّ بدفع نفقة شهريّة تعادل ثلث مرتّبي. هل يرضيكم أن يتكبَّد موظفٌ مسكين مثلي كلَّ هذه الأضرار يا سيدي؟ طلَّقتُها، وتحمَّلتُ ذلَّ الحكم لأنّني لا أستطيع فتح فمي لأدافع بكلمة واحدة عن نفسي. ماذا كنتُ سأقول لحضرة القاضي: طلَّقتُ المرأة لأنّني عجزتُ عن معاشرتها مثل الأوادم؟ نعم يا سيدي المدير، عجزتُ. كانت تلك المخلوقة تقف مثل الحائط بيننا؛ كلَّما اقتربتُ من زوجتي كنتُ..»

ـ ولكنْ لماذا؟

ـ أرجوكَ لا تتدَّخلْ في هذه اللَّحظة بالذات، سأُخرج هذه العلقة من صدري وأستريح. مفهوم..؟ «كنتُ أحسّ بأظافرها تَكْشط ظهري وعنقي وفخذي. ووقعتُ يا سيدي مرتين مغشيّاً عليَّ من الضحك، ولم أستطع المتابعة. وكلَّما استعذتُ بالرحمن وحاولتُ من جديد كانت تتلبَّس جسدَ زوجتي مرَّةً أخرى. النظرة نفسُها والشعر نفسُه والأصابع نفسُها التي رأيتُها عشرات المرّات تمتدّ بكؤوس المتة إلى فم ذلك الفاسق حبيبِها. وآخر مرّة يا سيدي المدير أمرَتْني زوجتي أن أركع على ركبتيّ، ففعلتُ، فقفزتْ فوقي كأنَّها تمتطي دابةً، وصارت تلكزني في خاصرتي بقدميها، وتصرخ بدلال: 'حا.. حا..' وأنا أطاوعها، حتى خرجنا من الغرفة. كنتُ عارياً وهي فوقي. وحين سالت شتيمةُ زوجتي الأولى في أذني مثلَ الزيت الحارّ أفقتُ، ونفضتُ زوجتي الثانية عن ظهري، ولاحقتُها في أركان البيت كي أضربها، لكنَّها كانت تتضرَّع وتصرخ قائلةً إنّني أنا الذي أمَرْتُها أن تفعل ذلك وأنَّها أطاعَتْني فحسب. بعد ذلك اليوم لم يهدأ لي جفن، ولم أَعد أطيقُ النظر في وجوه أولادي وزوجتي الأولى أو وجوه جيراني. ذهبتُ إلى الشيخ ملحم وطلبتُ مشورته فقال لي: 'أَكْثِرْ من الصلاة والوضوء، واستغفِرِ اللّه، فإنَّ النفس أمّارةٌ بالسوء'. حرقتُ بدني لكثرةِ ما توضّأتُ، واهترأتْ ركبتاي لكثرة ما ركعتُ، دون أن أجد الراحة والسكينة مثلما أخبرني

الشيخ. يئستُ من عيشتي يا سيدي، وقرّرتُ اللجوء إلى المنجّمين والعرّافين الذين أكّدوا جميعاً أنّ جسد تلك المخلوقة يسكنه جنٌّ واقع في حبّها، وأنّه يغار عليها من النسيم وطيور السماء إذا مرّت من أمامها. وسألتُهم: ' ولكنْ ما دخلي أنا، ولماذا اختار الجنّ تعذيبي؟ ' فلم يجيبوني. أعْطوني تحاويطهم وتعاويذهم وأعشاباً ورؤوسَ سحالٍ مجفّفة لأشرب مناقيعها. ارتاح ضميري قليلاً حين طلّقتُ زوجتي الأولى، التي كانت شابة ولها حقوقُها كما تعلم يا سيدي، ولكنّني انكسرتُ إلى الأبد. يا سيدي مَنْ يعوِّض رجولتي المهدورة؟ سيدي المدير، أنا أعرف بالضبط ما لفّقتْه تلك المرضةُ في تقريرها، ولكنّني أريدكم أن تصدّقوا أنّ كبريائي الجريح أفقدني صبري في تلك اللّيلة، ليلة ١٤ شباط. فبعد أن نظّمتُ الركّاب جيداً داخل المصعد، وأبعدتُ قدميَّ عن حافة بابه كي ننطلق، سمعتُ ضحكتها من الخارج، وتخيّلتُ أنّها تركض باتجاه المصعد وتطلب إيقافه. قد يخطر لك يا سيدي أنّ كرهي لها دفعني إلى متابعة طريقي وكأنّني لم أسمعها، ولكنّ واجبي منعني. تصوّرْ، حضرتك، بماذا قابلتْ كرمي؟ عندما لمحتني تراجعتْ وكأنّها رأتْ عقرباً، وخَمّنْ ماذا كانت تحمل في يدها؟ وردةً حمراء! وردة جورية حمراء! اندفع الدمُ إلى رأسي، وارتخت ساقي التي كانت تسدّ باب المصعد، ولم أستطع السيطرة، فانطلق الباب وكاد يطبق على رجلي لولا أنّ أحد أولاد الحلال سحبني بسرعة إلى الداخل. ما هذه الوقاحة هل انقطع الرجالُ من حولكِ يا ابنة الخائنة حتى تُهْدين ذلك النغل..»

ـ احذرْ.. كنا نمشي تمام، والآن أفسدْتَها.

ـ «ما هذه الوقاحة، قلتُ لنفسي يا سيدي المدير، أفتحُ لها الباب ـ أنا الرجلَ المريضَ ـ وهي تتغنّج وترفض الدخول؟ شتمتُها يا سيدي الشتيمةَ التي يحبّها قلبك..»

ـ يا رجل هل تريد أن يَقْلبها المديرُ فوق رأسك؟ في كلّ الأحوال أنت مجرّد موظّف صغير يقود مصعد المستشفى، وهي ممرِّضة لها وزنها..

ـ «شتمها أحدُ الركّاب يا سيدي.. الرجل كانت له عينان تريان وأذنان تسمعان. تعاطَفَ معي. تصوّرْ، الغريبُ الذي لا يعرفني تعاطَفَ معي. وتابعْنا طريقَنا ودمي يغلي في عروقي. وحوالى الساعة السابعة، أيْ وقت انتهاء دوامها في قسم العظميّة، كانت تقف مع مجموعة من زميلاتها ينتظرن المصعد. لم تكن قد حلّتْ مياومتي، ولكنّ أبا سليم كان غائباً، فأخذتُ مكانه. ولمّا رأتني ارتدّتْ إلى الخلف مثل المرّة الأولى، وأخذتْ تصعد الدرج، فأردتُ إدخالها إلى المصعد لكي نتفاهم. كان المصعد خالياً و...»

ـ لقد جعلْتَني أكتب أنّ زميلاتها كنّ يملأن المصعد..

ـ نعم ولكنْ.. نسيت. لم أعد أتذكّر. كلُّ ما أتذكره أنّني هجمتُ عليها. وحين لمستُ خصرَها زعقتْ زعقةً عالية كادت تُفْقدني صوابي وكدتُ أقع. فهجمتُ عليها مرّة ثانية لكي أُسكتها كي لا تَكْبر المسألة، وخاصةً أنّ بعض الرؤوس بدأت تتجمّع على رأس الدرج فوقنا. و.. لم أتمالك نفسي حين رأيتُ العيون تحدّق إليَّ باستنكار كأنّني مجرم، بينما كانوا ينظرون إليها كأنّها ضحيّة، وهي التي دمّرتْ حياتي، وجعلتني أَخْسر أولادي وزوجتي وشغلي دون أن يرفّ لها جفن.. دون أن يَخْطر لها كم أتعذّب لأحظى بنظرة واحدة من وجهها الـ...

ـ أبو حسن، لا أريد منك المائة وخمسين ليرة. المسألة صارت مسألة كرامة وشرف. أنتَ رجل مهزوم، وأنا سأعرف كيف آخذ لك بالثأر.

◆ ◆

تمايل الكرسيّ من تحته وكادت البلاطةُ العليا تنزلق من مكانها. استبدَلَ قلمَه بريشةٍ استَلّهَا من الدُّرج وأَغْمدها في الحبر، ثم شرع يكتب كلّ شيء منذ البداية.

لوس آنجلوس